تكون كلمة الله هى العليا فكيف يرضى لنفسه بهذه المهانة وهى إخفاء الغنيمة ؟ إنه يحارب من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، ويجب أن يكون فى مستوى ذلك .

وبعد ذلك يأتى الحق بالقضية العامة : « ثم توفى كل نفس ما كسبت » ، وهى تشمل الغلول فى الغنيمة والغلول فى غير الغنيمة ، ولنتصور هذه بالنسبة لكل من يخون أمانة أؤتمن عليها ، وأنه سيأتى يوم القيامة يحمل عمارة - مثلا - لأنه بناها بغير أمانة أو يحمل أطنانا من سمك لأنه سرقها ، أو يحمل أطنانا من الجبن الفاسد التى استوردها . فكل من سرق شيئا سيأتى يوم القيامة وهو يحمله ، وإذا كنا نشهد أن الناس لا تطيق أن تفضح بين الخلق ، والخلق محدودون لأنهم المعاصرون ، فما بالك بالفضيحة التى ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة . إذن فعلى كل إنسان أن يحرس نفسه لأن المسألة ستنفضح .

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ومادام سبحانه سيوفى كل نفس ما كسبت فكل سيأخذ قدر ما فعل ، فلا ظلم ، فلو ترك الأمر بلا حساب لكان هذا هو الظلم وحاشا لله أن يظلم أحدا .
وبعد تلك التهيئة والإيضاح يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح بعض القضايا طرح الاستفهام ، فهو يطرحها لا ليعلم هو فهو عالم ، ولكن ليستنطق السامع ، ونطق السامع حجة فوق خبر المخبر ، فلو قال : إن الذى يتبع رضوان الله لا يساوى من ذهب إلى سخط الله لكان ذلك إخبارا منه وهو صادق فيما يقول ، لكنه سبحانه يريد أن يستنطق عباده بالقضية ، « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء » ، « باء » أى : رجع « بسخط من الله » .

لاشك أن كل من يسمع عن الفارق بين اتباع الرضوان ، أو الرجوع بالسخط يقول : إن اتباع الرضوان يرفع درجة الإنسان ، والذى يبوء بالسخط يهبط إلى درك الخسران ، فالقضية قالها السامع . . فكأن الحق يستنطقنا بالقضية لتكون حجة علينا ، والذى يتبع رضوان الله بالطاعة ، أيساويه من يرجع إلى سخط الله بالمعصية ؟!

أفمن يتبع رضوان الله فلا يغُل فى الغنيمة ولا يختان فى الأمانة كمن غل فى الغنيمة وخان فى الأمانة ؟

أفمن اتبع رضوان الله بأن استمع لأوامر الله حين استنفره لجهاد العدو ، كمن لم يذهب لنداء الله ليكون فى جند الله مقاتلا لعدو الله ، لا ؛ فالذى لا يستجيب لنداء الله هو من يبوء بسخط الله .

و« السخط » هو : إظهار التقبيح ، لكن إظهار التقبيح قد لا يؤثر فى أناس غليظى الإحساس ، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم ؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم : « ومأواه جهنم وبئس المصير » و« مأواه » أى المكان الذى يأوى ويرجع إليه هو جهنم وبئس المصير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

« هم درجات » أى ينزلون فى الآخرة منازل على قدر أعمالهم ، فكما ترى الدرجات موصلة إلى المراقى العالية كذلك فى الآخرة كل إنسان مُحاسب بعمله ، ويأخذ عليه درجة ، ولنا أن نلحظ أن الحق يستخدم كلمة « درجات » بالنسبة للجنة ؛ لأن فيها منازل ورتبا ، أما فيما يتعلق بالنار ، فيأتى لفظ « دركات » ،

فالدركة تنزل ، والدرجة ترفع .

« هم درجات عند الله » فالله هو العادل الذى ينظر لخلقه جميعا على أنهم خلقه ، فلا يعادى أحدا ، إنه يحكم القضية فى هذه المسألة سواء أكانت لهم أم كانت عليهم ، وبعد ذلك يردفها ـ سبحانه بقوله : « والله بصير بما يعملون » ليطمئن هؤلاء على أن الله بصير بما يعملون فلن يضيع عنده عمل حسن ، ولن تهدر عنده سيئة بدرت منهم . « والله بصير بما يعملون » . ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » ، والعمل أهم الأحداث ، لأن العمل هو تعلق الجارحة بما نيطت به ، فالقلب جارحة عملها النية ، واللسان جارحة عملها القول ، والأذن جارحة وعملها الاستماع ، والعين جارحة وعملها أن تنظر . إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تُنشئه لتؤدى مهمتها فى الكائن الإنسانى ، إذن فكل أداء مُهِمّة من جارحة يقال له : « عمل » .

لكن « الفعل » هو تعلق كل جارحة غير اللسان بالحدث ، أما تعلق اللسان فيكون قولا ومقابله فعل ، إذن ففيه قول وفيه فعل وكلاهما « عمل » إذن فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معا ؛ لأن العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها ، لكن الفعل هو : شغل جارحة غير اللسان بالعمل المطلوب منها ، وشغل اللسان بمهمته يسمى : قولا ولا يسمى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيرا ، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل ، والكل عمل « والله بصير بما يعملون » قولا أو فعلاً وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

والذى يمن على الآخر هو الذى يعطيه عطية يحتاج إليها هذا الآخذ ، فكأن الحق يقول : وهل أنا فى حاجة إلى إيمانكم ؟ فى حاجة إلى إسلامكم ؟ أصفة من صفاتى معطلة حتى تأتوا أنتم لتكملوها لى ؟ لا ، إذن فحين أبعث لكم رسولا رحيما بكم ، فالمنة تكون لى وحدى .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

أكان يبعثه مَلَكا ؟ لا . بل بعثه من البشرية ؛ كى تكون الأسوة فيه معقولة . فعندما يقول لكل مسلم افعل مثلى ، فالمسلم عليه أن يطبق ما يأمره به الرسول ، لكن لو كان مَلَكا أكانت تنفع فيه الأسوة ؟ لا ، فقد يقول لك : افعل مثلى ، فتقول له : لا أقدر لأنك مَلَك ، ومن يدعى الألوهية لرسول ، فهو ينفى عنه الأسوة ؛ لأنه عندما يقول : كن مثلى ، يمكنك أن تقول : وهل نقدر ؟ أنت طبيعتك مختلفة ، فهل نصل لذلك ؟! لا نقدر ، ولذلك فالذين يقولون بألوهية رسول ، إنما يفقدون الأسوة فيه ، والمفهوم فى الرسول أن يكون أسوة سلوكية ، وأن يكون مبلغا عن الله منهجه ، وأن يعلن بشريته ويقول : أنا بشر وأستطيع أن أمثل وأطبق المنهج . إذن فهو أسوة سلوكية تطبيقية .

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنة على من آمن فقط ؟! لأنه هو الذى انتفع بهذه الحكاية ، لكنّ الباقين أهدروا حقهم فى الأسوة ولذلك تكون المنة على من آمن .

« لقد من الله على المؤمنين » وما هى المنة ؟ المن : الأصل فيه أنه القطع ، لكن حين نسمعها نجدها تستعمل فى أشياء متقابلة ، فمثلا : المن هو العطاء بلا مقابل ، والمن هو : تكدير النعمة بالتحدث بها ، مثل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالمن الذى نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل ، ولكن المن قد استعمل فى تكدير النعمة بكثرة الكلام فيها ، فقد يقول الإنسان لمن يمن عليه : لا أريد النعمة التى تتكلم عنها دائما ، إذن فالمن استعمل فى النعمة وفى تكدير النعمة ، تقول: مَنَّ على فلان إذ أنقذنى من ضيق كنت فيه ، ويقال : فلان ليس فيه مُنة ، أى ليس فيه قوة ، وكلها تدور فى معنى القطع ، فإذا استعمل فى النعمة والعطاء نقول : نعم فيها قطع ؛ لأن النعمة جاءت لتقطع الحاجة ، ففيه حاجة ثم جاء عطاء ، والعطاء قطع الحاجة . فاستعملت فى معناها .

فإذا جاءت نعمة بعد حاجة والحاجة انقطعت بالنعمة فلا بد أن تأتى بفعل بعدها وهو أن تشكر من أنعم عليك ، وخصوصا أنه الله ، فالمن يقطع الشكر لأنك إن مننت بالنعمة وأظهرت تفضلك بها على من أسديتها إليه فقد تسببتَ فى أن الآخذ لا يشكرك بل إنه يتضايق من نعمتك وقد يردّها عليك . فإذن : هنا قطع للشكر ، فإن قطعت حاجة محتاج فهذا يسمى « نعمة » وإن فخرت بنعمتك عليه حتى كدرتها فقد قطعت ومنعت شكره لك «وهذا يسمى « مَنًا » أى أذى لأنه يؤذى مشاعر وإحساس الآخذ . وإن قطعت مطلقا اختصت باسم « المُنّة » ، يقولون : فلان لا مُنة فيه أى لا قوة عنده تقطع فى الأمور ، وهنا يقول : « لقد من الله على المؤمنين » و« مَنَّ » هنا بمعنى أعطى نعمة ، والنعمة فى الدنيا تعطيك على قدر دنياك ، و« منة » الله برسوله صلى الله عليه وسلم تعطينى عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة ، فتكون هذه منة كبيرة .

« لقد من الله على المؤمنين إذ » ، و« إذ » يعنى ساعة أى حين بعث فيهم رسولا

منهم فقد عمل فيهم منة وقدم لهم ومنحهم جميلا كبيرا وأنعم عليهم نعمة ، « إذ بعث فيهم رسولا » . فإذا كان مطلق بعث رسول كى يهدى الناس إلى منهج الله يكون نعمة فماذا إذا كان الرسول من أنفسهم ؟ إن هذه تكون نعمة أخرى لأنه مادام من أنفسهم ومن رهطهم ومن جماعتهم ، هو معروف نسبًا وحسبًا ومعروف أمانة ، فلا يخون ، ومعروف صِدْقًا فلا يكذب ، كل هذه « مِنة » ولم يتعب أحدًا فى أن يبحث وراءه : أكذب قبل ذلك حتى نعتبر ذلك كذبا ؟ أخان قبل ذلك حتى نعتبر ذلك خيانة ؟ لا ، هل هو من الناس المدَّعين الذين يريدون أن يقيموا ضوضاء من حولهم ؟ لا . بل هو فى الحسب والنسب معروف ، جده عبدالمطلب سيد البطحاء ولا يوجد واحد من أهله تافها .

وعرف الجميع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة منذ صغره ، إذن فالمقدمات تجعل الناس لا تجهد نفسها فى أن تتحرى عنه أصادق هو أم غير صادق ؟ إذن فهو مِنّة ، ولذلك حينما بعث الله سيد الخلق إلى الخلق ؛ كان هناك أناس بمجرد أن قال لهم : إنى رسول الله ، آمنوا به ، لم يقدم معجزة ولم يقولوا له : ماذا ستقول أو ماذا تعمل ؟ بل بمجرد أن قال : إنه رسول الله صدقوه ، فعلى أى حيثية استندوا فى التصديق ؟ لقد استندوا على الماضى .

لقبتموه أمين القوم فى صغر
وما الأمين على قول بمتهم

ها هو ذا سيدنا أبو بكر رضى الله عنه يقول : إن كان قد قال فقد صدق ـ إذن فالمقدمات التى يعرفونها عنه كانت هى الحجة فى تصديق الرسول ، وخديجة ـ رضى الله عنها ـ عندما آمنت به ، أقال لها المعجزات والقرآن ؟ لا . بل بمجرد أن قال لها : أنا رسول الله . قالت له : صدقت فلابد أن تكون رسولا ، هو نفسه كان يتشكك وهى مؤمنة به ، هو نفسه يتساءل : لعل ذلك يكون كذا ، وذهبت به خديجة ـ رضى الله عنها ـ إلى ورقة بن نوفل لتطمئنه على الرغم من أنها كانت قد توصلت إلى الحكم فى القضية التى سألت عنها ورقة بن نوفل وأوضحت لرسول الله أنّ ما تقوله لا يمكن أن يوقعك فى بلية أو خزى أو ذِلّة ؛ لأن صفاتك جاءت كمقدمات لهذه النتيجة ، وهى أنك رسول كريم « إنك لتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب

الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[1] ، إنسان بهذه الصفات لا يمكن أن يأتيه شيطان ، وتعال نذهب معا لأهل الكتاب الذين لهم علم بهذه المسألة . كأنها آمنت برسالة رسول الله قبل أن يقول لها ورقة بن نوفل شيئاً .

إذن فقوله : « من أنفسهم » أي معروف لهم ، فلم يأت لهم بواحد سقط عليهم من السماء ، وقال : هذا رسول ، لا . إنه رسول « من أنفسهم » ، وهذه أول مِنّة ، « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، هذا إذا أخذت المحيط القريب أنه من الرهط ومن القبيلة ومعروف لهم ، « من أنفسهم » أو من جنس ونوع العرب ، وهذه أيضاً مِنّة ، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة ، والرسول عندما يأتي ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يريد أناساً تفهم عنه ، فأوضح لهم : لم أكلفكم لتقولوا ماذا يريد ، لا ، هو من أنفسكم ، وهو إنسان له مواصفاتكم ، ولكنهم لفرط عنادهم لم يؤمنوا مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنهم يستكثرون كيف يبعث الله بشراً ويجعله رسولاً ، وهذا غباء في الاعتراض ، ويأتي الرد الجميل من الله :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

انتم من البشر ، فلا بد أن نأتيكم برسول من جنسكم ، حتى إذا قال لكم : افعلوا كذا تقولون : نعم ؟ لأنه بشر ويعمل ونحن بشر نستطيع أن نعمل مثله . . لكنه لو كان مَلَكاً لقال الواحد منكم : وهل أنا أقدر أن أكون كالمَلَك ؟ إذن فلا تنفع

---

(١) رواه البخاري .

هذه الحكاية ، وهكذا منّ الله على المؤمنين.إذ بعث فيهم رسولا . « من أنفسهم » ، إن أخذتها على أساس أنها قبيلة محدودة ومعروفة فهى منّة ، وإن أخذتها على أنه من جنس عربى فيكون اللسان واحداً فهى مِنّة ، وإن أخذتها من الجنس العام وهو الإنسان فهى مِنّة أيضاً .

وهل اعتبار معنى واحد من المعانى ينقض المعانى الأخرى أو تأتى كلها فى سلك واحد ؟ إنها معانٍ تأتى كلها فى سلك واحد ؛ لأن المتكلم هو الله ، ومادام المتكلم هو الله فيكون عطاء اللفظ أكثر من عطاء ألفاظ الخلق ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفُسِهم » ، وهناك قراءة - وإن كانت قراءة شاذة - تقول : « من أنفَسِهم » (بفتح الفاء) أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم وهم أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب .

وماذا يعمل الرسول ؟ يُفهم من قوله : « رسولا » أنه لا يأتى بشيء من عنده ، بل هو - مع هذه المنزلة الحسنة بخُلُقه الجميل وماضيه الناصع - هو مع هذا رسول وليس له فى الأمر شيء ، إذن فمرسله خير منه ، فلا تنتبه إلى هذا الرجل العظيم فحسب بل يجب عليك أن تسأل : من أين جاء ؟ لابد أن تلتفت إلى أن الذى بعثه أعظم منه .

« رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ، وكلمة « يتلو » يعنى يقرأ لأن الكلمة تتلو الكلمة ، فالذى يقرأ أى ينطق كلمة بعد كلمة ، كلمة تالية بعد أخرى « يتلو عليهم آياته » وكلمة « الآيات » - كما نعرف - تستعمل للأمور العجيبة ؛ اللافتة للنظر ، تقول مثلا : فلان آية فى الحسن . أى حُسْنُه لافت للنظر ، وتقول : فلان آية فى الذكاء ، صحيح أن هناك أذكياء كثيرين ، لكنه آية فى الذكاء . . أى أن هذا الإنسان أمره عجيب فى الذكاء ، إذن فكلمة « آية » معناها : الأمر العجيب ، وهو الذى يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمل فى عجائبه .

والآيات نوعان : ايات منظورة فى الكون مثل قول الحق :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

﴿ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وكل ظواهر الكون تعتبر أشياء عجيبة . والنوع الثانى : هو آيات القرآن مثل قوله الحق :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فالآيات هى الأمور العجيبة وهى قسمان : منظور ومقروء ، المنظور : كل الكون ، والمقروء : هو القرآن ، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التى فى الكون يشاهدونها ويرونها ، لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة ، وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ؛ فينتهى الإنسان إلى الإيمان بمَن خلق هذا الكون .

إن الحق يقول عن الرسول : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم » والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، لا . فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كل سامع للقرآن إلى من خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة . ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون ، إذن فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكى الإنسان ، وأنت إذا سمعت كلمة « يُزكيهم » فأنت تعرف أنها من الزكاة . والزكاة أول معانيها : التطهير ؛ والتنقية ؛ والنماء . والآيات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المُطَهِّر أو المُطَهَّر ، إنه لمصلحة المُطَهَّر . التنقية والنماء لمصلحتكم أنتم وهذا لا يشكك فى التكليف ؛ لأن التكليف لم يأت للمُكلِّف ، إنما جاء للمُكلَّف ، وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فالرجل يكون ميسور الحال وعنده مال وعنده عقارات وأطيان ، وبعد ذلك يحب لأولاده أن ينجحوا فى المدارس

فيشجعهم قائلا لكل منهم : إن نجحت فسأفعل لك كذا . هو لا يريد منهم شيئا لنفسه ، فعنده النعمة الكافية ، هو يريد - فقط - مصلحتهم هم .

إذن فالمكلف لن ينتفع بتكليفنا أبدا ، فالتنقية لصالحنا والتطهير لصالحنا والنَّماء لصالحنا - والتزكية هي : تطهير وتنقية ونماء - ولننظر إلى الحالة التي كانت الجاهلية عليها ، هل كانت طاهرة ؟ هل كانت نقية ؟ هل كانت نامية ؟ لم يكن بها وصف من تلك الأوصاف ، لأنها جاهلية ، فكلهم محكومون بالهوى والجبروت والسلطان والقهر ، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يستبقي حياته وبعد ذلك يستبقي نوعه ، وبعد ذلك يستديم ما حوله ، والتزكية شملت كل أمر من هذه الأمور ، تزكية في الإنسان نفسه ، في ذاته ، بدلا من أن يكذب لسانه طهره عن الكذب ، بدل أن تمتد عينه إلى محارم غيره طهر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلا من أن تمتد يده خفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

والسرقة - كما نعلم حتى عند من يسرق - نقيصة ، بدليل أن اللص يتوارى ويحاول أن يسترها وألا يراه أحد ، لأنها رذيلة ونقيصة . ويأتي المنهج فيقول له : لا تسرق ، ويطهر المنهج حركة جوارح الإنسان في الأرض ، ويطهر قلبه من الحقد كي يعيش مرتاحا ، وتبقى قوته مصونة للعمل الجاد المثمر ، فلِمَ يبدد قوته ، ولِمَ يبدد نظراته ، ولِمَ يبدد علاقاته بالناس ؟

إذن فالمنهج ينمي الإنسان ، إنه تطهير وتنقية ونماء له ، وبعد ذلك عندما يصاب الإنسان بالعجز وعدم القدرة ، فلن يستذله الغير لكي يعطيه لقمة . لقد زكاه المنهج من هذه ونقاه من الذلة وجعل له في مال القادر حقا ، والقادر هو الذي يبحث عن الضعيف ليعطيه حقه ؛ لأن العاجز عندما يرى كل المؤمنين حوله قادرين يبحثون عنه ليعطوه حقه وليس مجرد صدقة يتصدقون بها عليه حينئذ يقول : أنا لست وحدي في الكون . أنا في الكون بفلان وبفلان ، فتكون تنمية له ، مادام الكل يعطيه .

أما عن بقاء النوع فماذا يعني ؟ إن الحق يريد طهارة الإنسان والذرّية التي تأتي وأن يجعل لها وعاءً شريفا عفيفا ، وإطارا لا تشوبه شائبة فجاء المنهج ليزكيكم في كل

شيء ، يزكى حركات جوارحكم فلا تتجه الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند من خلقها ، فالخالق قد أوضح : ياعين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يا رِجْلُ حدودك كذا ، يا قلب حدودك كذا ، فالذى خلق كل جارحة هو الذى أعطى لكل منها حدودها فلا تجاوز ولا تهاون ولا إفراط ولا تفريط ، فإن خرجت عن غير ما وضع لها فى منهج الله فقد خالفت . وهكذا نرى أن المنهج قد جاء يزكيكم أى يطهركم وينقيكم وينميكم فى كل مجال من مجالات الحياة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » وساعة يقول الحق : « الكتاب » فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن ، والحكمة هى السنة . والحق يقول :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وآيات الله معروفة وهى آيات القرآن ، والحكمة هى سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » ، إذن فالكتاب هو القرآن ، سيتلو عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء فى هذا الكتاب . بعض المفسرين قال : لابد أن نحمل « الكتاب » هنا على معنى آخر غير القرآن ، فقالوا : الكتاب يعنى الكتابة ، وأول عمل زاولوه فى الكتابة كتابة المصحف . إذن فالتقى المعنيان ، ولذلك فى غزوة « بدر » كان يتم فداء الأسرى إما بالمال وإما أن كل أسير يجيد القراءة والكتابة إذا أراد أن يفدى نفسه فعليه أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فقد كانت الأمة أمية . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للأمية ، أو نأخذ هذه اللفظة على أساس أن هناك فرقا بين التلاوة والتعليم ، التلاوة : يتلو عليهم ، أى أن الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأن يتلوا هم القرآن . « ويعلمهم الكتاب والحكمة » و« علّم » أى نقل العلم من مُعَلِم إلى مُعلَّم .

ويختتم الحق هذه الآية بالقول الكريم : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وهناك أساليب تأتى فى القرآن فيها « إن » وتجد كل « إن » فى موضع لها معنى يختلف عن الآخر ، فمثلا تأتى « إن » شرطية ، يعنى يأتى بعدها فعل شرط وجواب شرط مثل قوله الحق :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة آل عمران)

أى إن يمسسكم قرح فلا تيأسوا ولا تبتئسوا . فقد مس القوم قرح مثله ، وقوله الحق :

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ﴾

(من الآية ٢٧١ سورة البقرة)

إننا هنا نجد أنّ « إن » شرطية ، ففيه شرط وجواب شرط . ومرة تأتى « إن » وبعدها « إلا » :

﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

وهو سبحانه يتكلم هنا عن الذين يظاهرون من نسائهم ، أى يقول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، إن أمك هى التى ولدتك وامرأتك لم تلدك ، فلو كانت أمك لكانت محرمة عليك ، « إن أمهاتهم إلا اللائى » ، فعندى هنا « إن » وبعدها « إلا » ومادام جاءت « إلا » فالذى بعدها يكون مثبتا ، والذى قبلها يكون منفيا ، مثل قولنا : « ما قام القوم إلا زيدًا » إن زيدا مختلف عنهم . « إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم » أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، إذن فـ « إن » هنا ليست

شرطية لكنها هنا « إن » النافية وتعرفها بوجود « إلا » .

ومرة ثالثة تأتى « إن » لا هى شرطية ، ولا هى نافية مثل آيتنا هنا « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . ونقول : هذه « إنْ » التى هى تخفيف « إنّ » أى « إنّ » هنا مخففة من الثقيلة ويكون المعنى وإنّ الحال والشأن والقصة والواقع أنهم كانوا فى ضلال مبين . ويقول النحاة : اسمها ضمير الشأن - أى الحال والقصة - وهو محذوف .

وما هو الضلال ؟ يقولون : ضل فلان الطريق أى مشى فى مكان لا يوصله للغاية ، أو يوصل إلى ضد الغاية ؛ لأن الضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلنى لغايتى المرجوة ، وقد لا يوصلنى لشر منها أو لمقابلها ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟ إنه لا يوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلال واضح ؛ بدليل أن النقائص التى جاء الإسلام ليطهر الإنسان منها ، يحبّ مرتكبها ألا تُعلم عنه وسط الناس ، فالسارق يسرق لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه لص ، والكاذب يكذب لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه كذاب ، بدليل أنك عندما تقول له : يا كذاب تكون له صاعقة . إذن فالنقيصة تُفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد أو يُعرف بها .

« وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » أى ضلال ظاهر وهو ضلال يعرفه صاحبه بدليل أننا قلنا فى قصة سيدنا يوسف ؛ حيث نجد فى القصة اثنين من الفتيان قد دخلا السجن ، وماذا حدث لهما :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد رأوا فى يوسف عليه السلام كان عنده ميزان الإحسان فهو يعرف الحسن والقبيح ، ولأنهما يعرفان ميزان الإحسان فلا بد أن تكون المسائل بالنسبة لهما واضحة . ولماذا لم يقلها واحد منهما من قبل ؟

لقد شهدا هذه الشهادة لسيدنا يوسف لأنهما يطلبان الآن مشورته فى تأويل الرؤى . كان يوسف عليه السلام مسجونا ، ولم ينظر إليه أحد إلا كمسجون . ومن سلوكه معهما فى السجن عرفا أنه طيب ومحسن . ولذلك التفتا إليه ورأيا فيه أنه قادر على تأويل رؤيا كل منهما . مثلما قلنا : إن المنحرف نفسه يعرف قيمة الفضيلة ، وهكذا نجد أن الفضيلة مسألة ذاتية وليست نسبية ، أى أنه حتى المنحرف عن الفضيلة يرى الفضيلة فضيلة .

وبعد ذلك يعود الحق إلى قضية عجيبة ، فإذا كان الله سبحانه قد من على المؤمنين بالرسول ، ومن أنفسهم ، وجاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء ونماء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة وهى وضع الشىء فى موضعه ، أو البحث عن أسرار الأشياء كان يجب عليكم - إذن - أنه إذا قال قولة لا تخالفوا عنها أبدا ، وعندما يجرى على يديه أمر فهو لا يحتاج إلى مناقشة ، إذن فما حكايتكم ؟

يقول الحق :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾

لماذا تقولون : كيف يهزمنا الكفار ؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم خالفتم الرسول الذى منّ ربكم به عليكم ، وآتاكم ، وزكاكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، كان

مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذى هو بهذه المواصفات أن تطيعوه ، ولا يقولن أحدكم : لماذا تحدث هذه الهزيمة ؟ ولا يقولن أحد لماذا حكاية أُحُد وكيف يهزمنا الكفار ؟ إنّ هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله مَن عليكم وبعث فيكم رسولا ، ثم إن أُحُدًا ليست مصيبة بادئة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة ،ونلتم منهم ضعف ما نالوا منكم .

فانتم بدأتم ببدر وأعطاكم الله الخير . أنتم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحدًا فى « أُحُد » ، أنتم أخذتم غنائم فى بدر ، وهم لم يأخذوا أى غنيمة فى أُحُد ، ما العجيبة فى هذه !! كان يجب أن تبحثوا فى ذواتكم وفى نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم !؟ أيكون منكم ذلك السؤال وهو « أنى هذا » ، لأن « أنى » معناها استنكار أنّ هَذَا يحدث أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله وفينا النبى والوحى وهم مشركون ونقول لكم : وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب ؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضى منكم أن تنفذوا ما قاله الرسول ، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى ، الذى كنتم عليه فى بدر .

وساعة تسمع « أو لما » فهناك همزة الاستفهام ثم « واو عطف » ، « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » ، و« لما » هنا هى الحينية ، فهاذا يكون المعنى ، لقد آمنتم بالله إلها وآمنتم بالرسول مبلغا ، أحين تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها تقولون أنى هذا ؟

كان المنطق الا تسألوا هذا السؤال أبدا لأنكم آمنتم بإله عادل له سنن لا تتبدل ولا تتحول . أكان يترك السنن من أجلكم !؟

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝ ﴾

(سورة الأحزاب)

وفى موقع آخر من القرآن يقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

فلو أنكم استحضرتم الإيمان بالإله الذى أطلق السنن فى الكون ليسوس به أمر ملكه بما يحقق أمر المصلحة لما قلتم هذا ومادمتم قد آمنتم بأن الإله هو الذى صنع تلك السنن فكان الواجب عليكم أن تعلموا أن الإله لن يجاملكم بإبطال سننه من أجل أنكم نُسبتُم إليه أولا بأنكم مسلمون ، فإنكم إن خالفتم فسنن الله واقعة ، وكان يجب أن تفهموا هذا الأمر ، وكان يجب ألا تسألوا هذا السؤال ، وقد آمنتم بالله إلها له سنن ، وآمنتم بالرسول المبلغ عن الله . أحين تصيبكم مصيبة مع هذا الإيمان قد أصبتم مثليها ، تقولون : أنى هذا ؟ أنتم حدث منكم أنكم أصبتم خصومكم ، وياليتكم أصبتموهم بمثل ما أصابوكم به بل أنتم أصبتم مثليها ، كان يجب أن تقارنوا : لماذا أُصِبْتُم مثليها من قبل ، ولماذا أُصِبْتم الآن ؟ كان يجب أن تعرضوا عملكم على الموازين الإيمانية ؛ فإن عرضتموه على الموازين الإيمانية لما سألتم هذا السؤال : « أنى هذا » . .

وساعة تسمع « أنى هذا » فلها معنيان : إما أنها تأتى بمعنى (كيف يحدث هذا) ؟ وإما بمعنى (من أين يحدث هذا) ؟ فإن كانت لأعيان وتحب أن تعرف ، مثلما أحب سيدنا زكريا أن يعرف : من أين يأتى الرزق لسيدتنا مريم وهى فى المحراب :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

أى من أين ؟ وتأتى مرة أخرى بمعنى « كيف » :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى ؟ إذن فمرة تكون بمعنى « من أين » ، ومرة تكون بمعنى « كيف » ، والذين دخلوا معركة أُحُد كانوا ينكرون ويستعجبون لعدم انتصارهم . . فأوضح لهم الحق : لو كنتم مستحضرين قضية الإيمان بإله عادل وضع فى كونه سننا وهو لن يغير سننه ولن يحولها من أجلكم أنتم ، إن عليكم أن تعرفوا أن الله لا يتغير من أجل أحد ، ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله .

« أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » : و« لما » بمعنى : حين ، واسمها : « لما الحينية » و« لما » تكون أيضا من أدوات وعوامل الجزم مثل : لَمْ و« لم » تنفى ، و« لمَّا » أيضا تنفى مثل قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

أى أن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد . إنما من الجائز أنه قد يدخل بعد ذلك ، هذه اسمها « لَمّا » الجازمة . وهناك « لما » الشرطية مثل قولنا : لما يقوم زيد يحدث كذا ، وهذه فيها شرط ، وفيها الزمن. أى حين يقوم يحدث كذا ، مثل قوله الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات).

أى حين أسلم وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا اى ناديناه ، والواو هنا مقحمة مثلها فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » أى قال لهم. ومعنى مقحمة. جىء بها للتوكيد والتقوية. أو جاءت الواو هنا لتفيد أن نداء الله لسيدنا إبراهيم جاء مصاحبا لإلقاء ابنه إسماعيل على وجهه ليذبحه .

فـ « لـمّا » هذه وفى الآية التى نحن بصددها هى « لما الحينية » ، أحين تصيبكم أى : أوقت تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها « قلتم أنى هذا » كان يجب أن تقارنوا لماذا أَصَبْتُم فى بدر مِنْ عدوكم ضعف ما أصاب منكم ، ولماذا أصاب عدوكم منكم يوم أُحُدٍ هذا ؟ كان يجب أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال ؛ لأن الميزان منصوب وموضوع ، ومادمتم تغافلتم عن هذا فسيأتى لكم الرد . . قل يا محمد لهم رداً على هذا : « هو من عند أنفسكم » . لقد خالفتم عن أمر الرسول ، ومادمتم خالفتم عن أمر الرسول فلا بد أن يحدث هذا بمقتضى إيمانكم بإله له سنن لا تتحول ولا تتبدل . « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » .

وبعد ذلك تذيل الآية بقوله سبحانه : « إن الله على كل شىء قدير » . فما موضعها هنا ؟ موضعها أنه مادامت لله سنن ، وسنن الله لا تتبدل ، والله موصوف بالقدرة الفريدة له فلن يأتى إله آخر ويقول : نبطل هذه السنن . ومادام لا يوجد إله آخر يقول ذلك فهو سبحانه قدير على كل شىء ، وهو قدير على أن تظل سننه دائمة ، ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية ؛ لأن السنن وضعها الله . فمن الذى يغيرها ؟ إنها لن تتغير إلا بقوة أعلى ومعاذ الله أن تكون هناك قوة أعلى من قوة الله ؛ لذلك يوضح سبحانه : أنا قدير على كل شىء وقدير على أن أصون سننى فى الكون ، فلا تتخلف ولا توجد قوة أخرى تحوِّل هذه السنن أو تبدلها .

ولا تظنوا أن ما أصابكم جاء فقط لأن السنن لا تتغير ، لا ، فهذا قد حدث بإذن من الله ، فالله أوضح للكون : من يخالف أمرى أفعل فيه كذا . إذن فالكون لم يحدث فيه شىء دون علم الله وإذنه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾